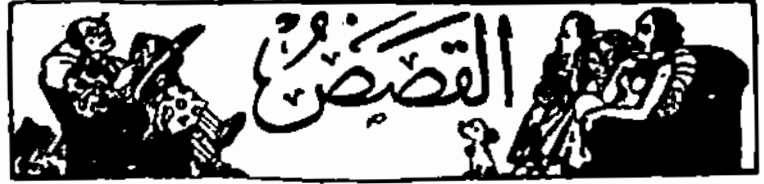


رب عائلة يندو رجلا مرعا، وحينئذ أتوقم أن أسمع منه قصة
عن الحرب تقطع بها بقية الطريق
وذات مساء، وكان قد تناول كأسين من الشراب، وقف



السترة القديمة

للسائب الفرنسي فرانسوا كورييه

للأستاذ حسن فتحي خليل

لجأة أمام أحد الحوانيت التي تباع فيها الملابس القديمة في شارع
جرينبل، كان حائونا قدرا يمرض سترات قديمة لبمض الضباط
لونها الأمطار، وأحالت أشعة الشمس ألوانها، وبمض الزراري
والسدسات المتيقة، فأمسك فيدال بذراعي يده الوحيدة ثم
أشار بطرف ذراعه المقطوعة إلى إحدى هذه السترات. كانت
لضابط برتبة الكابتن، ثم قال « انظر .. هذه هي سترة رسمية
عليها علامة الفرقة التي كنت أخدم بها ».

وتقدم ليدي الرقم المحفور على الأزرار ثم قال : « يا إلهي ..
إنها نفس فرقتي »

ولجأة ارتشت شفتاه وشعب وجهه وقال في صوت فزع ..
« يا إلهي .. ربما كانت سترته هوا » وأمسك بالسترة يقلبها بين
يديه، فلاحظ تقبا صغيرا مستديرا في منتصف الظهر .. ثقب
رصاصه، وحوله بقعة سوداء لملها آثار دم، وكان ذلك الثقب
يشير الفزع والشفقة، وكأنه جرح حقيق، ولحت في وجه فيدال
أن هناك قصة وراء هذه السترة؛ فقلت له ونحن نتابع سيرنا
لأدفعه حتى يحدثني بها :

— « إن ضباط فرقتك لا يبحرون من الخلف .. أليس
كذلك ؟ »

ولكنه لم يسمنى .. كان يهمهم ببعض الكلمات قائلا :
— « كيف وصلت إلى هنا ؟ إنها لمسافة طويلة جدا من ميدان
الحرب في ميلينيانو إلى شارع جرينبل ... أنا أعرف أن هناك
لصوصا يسلبون الموق ملابسهم في الميدان، ولكن من الغريب
حقا أن تصل هذه السترة إلى ذلك الحانوت الذي لا يبعد عن
المدرسة الحربية سوى مائة خطوة لحسب حيث تسكر فرقتي،
ولله مر بها كثيرا وهرقها وكأنها ميت عاد إلى الحياة »

ولقد أثار ذلك اهتمامي حتى أني أمسكت بذراعه وقلت
« اسمع يا فيدال » لا تتكلم هكذا فأنا لا أفهمك .. ولكن
حدثني بالقصة كاملة .. بماذا ذكرت لك هذه السترة ؟ »

وكنت أشك في أنه سيتكلم لأنه غصني بنظرة كلها شك ..
بل خوف، ولكن ينجبل إلى أنه اتخذ قرارا هاما فإذابه يبدأ قائلا :

حينما كنت أشغل وظيفة كتابية بوزارة الحربية، كان لي
زميل في نفس حجرتي يدعى جان فيدال، وهو ضابط سابق،
فقد ذراعه اليسرى في الحلة الإيطالية، ولكنه كان يمكنه
الاكتفاء بيده اليمنى للقيام بأعمال مدهشة

كان شخصا وديما وعمودا للجندى الطيب، ومع أنه كان
لا يتعدى الأربعين من عمره، إلا أنه من المسير أن تميز شعرة
بيضاء واحدة في لحيته، ومع هذا اعتدنا أن نطلق عليه « الأب
فيدال » احتراماً له، لأننا كنا نعلم الكثير عن حياته الباسلة
في مسكنه المتواضع بحي جرينبل، فقد ضم أخته إليه للاقامة معه
لجاءت يتيمها طابور من الأطفال، وكان دخله يتكون من
معاشه ومرتبته .. وجلته ثلاثة آلاف فرنك ببش عليها خمسة
أشخاص، ولكنه بالرغم من هذه الأعباء، نظيف اللبس
فسترته نظيفة، وقد شبك ذراعه اليسرى الفارغة بدبوس

و كنت أسكن حينئذ أحد أحياء جنوب باريس، فكنت
أصعبه دائما في طريقه إلى المنزل كما كنت أستشيريه دائما ونحن
في طريقنا ليحدثني عن حياته العسكرية السابقة، وكنا نمر في
طريقنا بالقرب من المدرسة الحربية فتواجهنا تلك السترات الرسمية
المختلفة الألوان — وكنا في آخر أيام الإمبراطورية — الثانية التي
يلبسها رجال الحرس الإمبراطوري ورجال الهوسار بملابسهم
الخضراء، والخيالة بملابسهم للبيضاء والمدفعية بملابسهم الموشاة
بالقصب والتي تتمتع حقاً أن يقاتل لابسوها من أجلها حتى الموت
و كنت أدهو زميلي في أمسيات الصيف لتناول كأسين من
الأبست، ونجلس في القهى حوالى نصف الساعة، وحينما تأخذه
للنشوة منذ تلك الكأس التي انقطع عن شربها منذ أن أصبح

— سارى إن كنت ستأدب ١١

فلم يجبه الظلم بشئ بل سار في هدوء نحو زمراته ، ولعل
الكاتبين كان سينير اعتقاده لو رأى ذلك الغضب المرتسم في ميني
(الظلم) الزرقاوين الملبتين

وحدث بعد ذلك أن أعلن الإمبراطور الحرب على النمسا فنفلتنا
بحراً إلى إيطاليا ، ولن أحدثك عن الحملة بل سأتابع قصتي . ففى
بداية المركة مركة « ملنيانو » التى فقدت فيها ذراعى عسكريت
فرقتنا في قرية صغيرة . وقد أتى علينا الكاتبين خطاباً قصيراً قبل
أن يصرقنا وهو يذكرنا بأننا نقيم في بلاد صدبة ، وأنه يجب أن
نامل الناس معاملة طيبة ، وأن كل جندي يؤذى أحداً من
السكان سيكون جزاؤه قاسياً .

وكان (الظلم) يرتكن حينئذ على بندقيته بجاني ، وكان
تغلا بعض الشئ ، فبرز كفتيه ولم يره الكاتبين لحسن الحظ .

ولقد استيقظت متزعجاً في منتصف الليل وأسرت نحو فناء
المسكر فوجدت — في ضوء القمر — عدة جنود ورجال
مدنيين يحاولون أن يخلصوا فتاة جميلة من بين ذراعى « الظلم »
وكان يقاومهم في قوة بينما كانت هى تصبح جزعة داعية العذراء
وكافة القديسين ليخلصوها منه ، فأسرعت للمساعدة ، ولكن
كان الكاتبين جنين قد سبقنى . كانت له عين صارمة آسرة
فراجع الشاويش أمامه ، فطمأن الكاتبين الفتاة بوضع كلات
إيطالية ثم نظر إلى (الظلم) وقال : « إن التوحشين أمثالك يجب
أن يدموا .. وفي اللحظة التى سارى فيها الكولونيل ستفقد
رتبتك ثانية .. ستهارب غداً . ولست نحتاج أن نموت
في المركة .

وآوينا للنوم ولكن كان الكاتبين على حق ، فأنا شغشقي
الفجر حتى اندلعت نيران الدفعية ، فأسرعنا نحو أسلحتنا واندفعنا
للقنال وكان (الظلم) يسير بجاني وحينئذ تفردان بالسوء . وكانت
الأوامر الصادرة إلينا تقضى بأن نطارد النمساويين الذين لجأوا إلى
الجنادق في قرية « ملنيانو » فسرنا ما يقرب من الميل ولكن
كاجاننا نيران المدد وقتلت منا حوالى الخمسة عشر رجلاً فأمرنا
للضباط بالابتطاح أرضاً بينما ظلوا هم واقفين . وجأة شمعت نجسم
بجاني فقلعت فوجدت « الظلم » ينظر إلى وهو ممسك ببندقية

« حسنا ، سأحدثك بالقصة فأنت رجل أمين وشاب مثقف ،
وأعتقد في صدق حكمك ، وحينئذ أنتهى من سرد قصتي أرجو أن
نصارحني مما إذا كنت قد تصرفت تصرفاً حكيماً
والآن .. من أين أبداً ؟ آه نعم .. أولاً لا يمكننى أن أذكر لك
اسم ذلك الرجل لأنه مازال حياً ، ولكننى سأطلق عليه اسمه
الذى اشتهر به في الفرقة . كنا ندعوه « الظلم » وكان ذلك الاسم
يلائمه تماماً لأنه كان لا يبرح (الكاتبين) أبداً وكان في مقدوره
احتماء اثنتى عشرة كاساً حتى ينتصف الليل

كان شاويشا في فرقتي وكنا نعمل في مؤخرة الجيش ، ومع
أنه كان سكيرا ولصا ومحبا للشجار إلا أنه كان شجاعاً كالأسد ،
له مينا زرقاوان باردتان كالصلب في وجه لوحته الشمس ولحية
حمراء . ولقد صرح له مرة بإجازة ثلاثة أيام قضائها في الأحياء
الساقطة بالجزائر مع ستة من الجرمين على شاكلته فأعيد إلى
الثكنات مشجوع الرأس بعد أن تشاجر مع بعض الجنود في منزل
امراة ساقطة . وأفاق بعدها فحكم عليه بالسجن أسبوعين ،
وخفضت رتبته ، وكانت هذه هى المرة الثانية التى يجازى فيها
بذلك الجزاء . واقد كان من عائلة محترمة كما أن ثقافته طيبة ،
ولو كان حسن السلوك لحظى بتقنيات متوالية . ولكنه بعد مضي
ثمانية عشر شهرا استعاد رتبته بفضل رئيسه الكاتبين الذى قدر
رباطة جأشه تحت رابل النيران في الجزائر .

ولكن حدث أن نقل الكاتبين المذكور وحل محله آخر
كودسيكى في الثانية والعشرين من عمره واسمه جنين وهو شاب
طموح وضابط نشيط ، ولكنه يقدر في معاملة جنده ، فهو
يجازيك بالسجن أسبوعاً إذا رأى زواراً مقفولاً من سترتك ، أو
لاحظ بعض الصدا على بندقيتك . هذا فضلاً عن أنه لم يخدم في
الجزائر من قبل فلم يكن يسمح بذلك التراخي في النظام الذى
تمودناه هناك حتى اعتبرناه حقاً من حقوقنا .

ولأول وهلة نشأ شعور من عدم الاستطاف بين الكاتبين
جنين وزميلنا « الظلم » وكان جزاء أول ذنب يرتكبه الشاويش
نعدم استجابته لما يطلب منه أن حكم عليه بالسجن أسبوعاً . و بينما
فاجأه غلا مرة ثانية حكم عليه بالسجن ستة أسبوعين . وقد قال
الكاتبين وهو يدينه :

وقال أترى الكابتن ؟

قلت - نعم .. هل هناك شيء ؟

قال - حسنا .. لقد أخطأ حين وجهه إلى كلاته في الليلة الماضية ثم رفع بندقيته في لحظة خاطفة وأطلق النار ، فرأيت الكابتن وقد انحى ثم دفع رأسه إلى الخلف تاركا سيفه وسقط في قوة على ظهره

فقلت وأنا أمسك بذراع « الظلم » - أيها القتال !

ولكنه دفعني بعيدا وهو يقول - أيها النمي .. كيف تثبت أني قتلتك ؟

فتمت واقفا وأنا تأثر قاضب ، ولكن حدث في نفس تلك اللحظة أن هب بقية جنود الفرقة واقفين إذ صدرت أوامر الكولونيل بمهاجمة العدو

كنت فاقد الحيانة حينئذ لأنه كان يتحتم على أن أهاجم العدو مع زملائي وكان القتال مريرا .. حتى أني فقدت ذراعي في هذه للمركة

وكان الجنرال ممطليا صهوة جواده ، نفورا بنا نحن جنوده الشجيمان وهو يقول « عشم يا رجال فأنتم أشجع جنود العالم » وكنت مازات قابعا في مكاني وأنا أتحسس ذراعي المكسورة حين تذكرت جريمة « الظلم » القذيمة . ووايقه وهو يقادر مكانه ويتقدم نحو الجنرال ، وقد شج رأسه الطاري والدم يشهب منه منها الدم على جبينه وخديه ، وهو ممسك ببندقيته في يده الأخرى أحد الأعلام النمساوية التي استولى عليها . فنظر إليه الجنرال في إعجاب وقال « سامنحك وسام الصليب »

وقدنت ومعي بعدئذ .. ولكنك تعرف ما حدث لي ، لقد بتروا ذراعي وقضيت شهرين أهدى في المستشفى ، وحينما كنت أضطجع أرقا في فراشي ليلا كنت أتساءل عما إذا كان من واجبي أن أبلغ من جريمة « الظلم » التي اقترفها ، ولكني كنت أعود فأقول إنه لا يمكن إثبات ذلك . ومع هذا فقد حدثت نفسي بأنه وإن كان مجرما إلا أنه أثبت أنه جندي شجاع ، لقد قتل رئيسه ولكنه استولى على علم نمساوي .. ولم أعد أستقر على رأي فيما أفعله

والا شئت أخيرا بلشني أن « الظلم » نال رتبة جديدة وأنعم عليه بوسام الصليب ، وقد دفعني ذلك للانشغال من وسأى الذي ثبته الكولونيل بنفسه على صدرى وأنا في فراشي بالمستشفى وعلى أبة حال لم أعد أرى « الظلم » منذ ذلك الوقت حتى الآن .. فقد ظل في سلك الجندية بينما غادرها أنا لماهتي

ولكني حين رأيت تلك السترة القديمة في ذلك الحانوت بجانب للمسكر الذي يقيم فيه القاتل الآن أعاد منظرها إلى ذهني في جلاء حوادث تلك الجريمة التي لم ينل مرتكبها جزاءه بعد .. ولم أنقطع من التفكير في أن الكابتن مازال يصيح مستنجدا بالمعالة

وحاولت ما أستطيع أن أهدى بيير فيدال وهو على حاله تلك من الاضطراب ، وأخبرته مرارا أنه قد فعل خيرا وأن شجاعة « الظلم » قد عمت جريمته

ومرت أيام بعد ذلك .. وحين دلفت إلى حجرة مكثي يوما ناولتي فيدال جريدة الصباح وقد طواها بحيث يظهر منها ذلك الخبر الذي قرأته كما يلي :

نحية أخرى من ضحايا الإفراط في الشراب

وحدث بعد ظهر أمس في شارع جرينبل أن رجلا يدعى ماليه وشهرته « الظلم » وهو شاووش في الحرس الإمبراطوري كان قد أفرط في الشراب في إحدى الحانات هناك مع زميلين له وكان واقفا يتطلع إلى حانوت لبيم الملابس القديمة ، وفجأة اعترته حالة من الهذيان التمل فأخرج سلاحه وجعل يمدو كالمتوه ، ولكن تمكن زميله من الإمساك به وهو يصيح أنه ليس بقاتل .. وأنه استولى على علم نمساوي في ملينانو . وقد علمنا أن ماليه نال وساما على شجاعته في الحرب ، وأن إدمانه على الشراب هو الذي منعه من متابعة ترقياته . وقد نقل إلى المستشفى العسكري وسيحول بعدها إلى مستشفى سارنتون للأراض العقلية حيث يقال إنه لن يستعيد قواه العقلية بئانا .

فأحدثت الجريمة إلى بيير فيدال التي رمقني بنظرة لها مظاهها ثم قال . لقد كان الكابتن كورسيكيا وقد حصل على انتقامه .

مسي قضي غلب